الألفاظ ومعانيها دراسة وتوجيه

حسام عبد علي الجمل
كلية التربية الاساسية-جامعة بابل

المقدمة

لقد تعرضت اللغة العربية شأنها شأن أية لغة أخرى إلى تأثير الكثير من لغات العالم بفعل الانتقال منها واليها من قبل أبنائها وابناء اللغات المختلفة الذين راموا تعلمها وإدخال ما كان يترشح من لغاتهم بفعل الطبيعة الإنسانية إليها وكذلك لانتشار الثقافة والعلوم ((ولو إننا أجلنا خلال عصور اللغة العربية في الأقطار المختلفة للناطقين بها لوجدناها تتأثر طوراً بعد طور ومكاناً اثر مكان بما ساقته إليها المقادير من لغات تريد ان تعايشها، أو تزاحمها، أو تقضي عليها))[١].

لذلك تدعو الحاجة وباستمرار إلى تأشير الكثير من الملاحظات التي يضعها المختصون واصحاب الدراية باللغة العربية لإيضاح ما يشوب اللغة جراء تطور الحياة وكثرة وسائل الإعلام التي باتت تدخل حياة المجتمعات وتؤثر بشكل فعال وخطير فيها بحيث صار لبعض العاملين فيها وخصوصاً العاملين في جهاز (التلفاز) دور فعال في إكساب الناس الكثير من الغلط والتشويه اللغوي الذي لو قيظ له الشيوع والانتشار لغير الكثير من معالم اللغة ومرتكزاتها لذلك : فان من واجب المخلصين للغة الضاد السعي المستمر إلى نشر الوعي اللغوي، والحث على إشاعة اللغة السليمة بين صفوف الناس والتذكير المستمر بقيمتها باعتبارها موروثاً مقدساً من تاريخنا العظيم والعنصر الأساس في الإعجاز القرآني وإحدى الروابط القومية الثابتة ولهذا الغرض يأتي هذا البحث إشارة متواضعة للإسهام في هذه الدعوة.

تضمن البحث قسمين وخاتمة درس القسم الأول اللفظ بنوعيه الحسن والضعيف، ثم درس المعنى بنوعيه الحسن والضعيف.

ودرس القسم الثاني ائتلاف اللفظ مع المعنى : الائتلاف الحسن ثم الائتلاف الضعيف، ثم جاءت الخاتمة.

القسم الأول

المفردة

ترتكز حياة الإنسان على جملة أسس تشكل اللغة بمعناها العام ومادتها إحدى هذه الأسس، والكلمة، ثم الجملة المتولدة من مجموع الكلمات : هن : عناصر هذا الصرح ومادته الخام وهن الأدوات اللواتي يترجمن الأفكار إلى واقع مكتوب يتمكن من معرفته كل راغب في ذلك و ((الأديب لا يختار الكلمات ثم بعد ذلك يجمعها في قالبه من النثر، بل ان الأديب يبدأ العمل بفكرة عامة عن أي موضوع يرغب فيه كما تسبق فكرة المهندس المعماري عمل البناء))[٢]، لذلك يتعين على الأديب أو الكاتب بشكل عام توخي الدقة والحساسية في اختيار المفردة لأن ((العبارات والجمل وكلماته هي رأس ماله وحين يكتب يختار الكلمات أما بلا شعور، أو بشعور باطن))[٣]، ومن يتوخى الدقة فيما يكتب يرغم على تخير الكلمات بكل اعتناء وبطء وجهد حتى يلائم بين الكلمات والمعنى الدقيق الذي يريده))[٤]، لان جودة المعنى تنبع من القدرة العالية في وضع الألفاظ في أماكنها وبذلك تتفاوت القدرات الإبداعية عند الكتاب والمفكرين فمن يتمكن من وضع المفردة في افضل مكان لها يقترب من الإبداع بنفس هذه الإمكانية وذلك لكون ((الألفاظ لم توضع كما إنها لا تستعمل

لتعيين الأشياء المتعينة بذواتها))[٥]، إذ أن للكاتب صورة ذهنية كاملة لكل شيء ولكل حدث فهو يصنع ألفاظ اللغة ويستعملها لتحريك الصورة الذهنية[٦] الكامنة التي تقوم بدورها بصب المعاني في قالبها الخاص من الألفاظ على هذا يتوجب علينا التمييز بين اللفظ المناسب واللفظ غير المناسب سواء كان ذلك اللفظ صالحاً للاستعمال في مكان غير هذا المكان، أو كان من الألفاظ التي عزف عنها الاستعمال وجفاها الذوق ونبا عنها السمع ((والمراد بالصورة إبراز المعنى المعبر عنه))[٧].لذلك نرى إن : ((موضع المشقة في الأدب ليس إلا في القدرة على إخضاع الفكرة والإحساس للفظ))[٨] والأدب، أو الحديث، أو الثقافة بشكلها العام هي : ((طريق من طرق العبارة عن النفس، يعبر باللفظ كما يعبر المصور بالألوان، والناقد بالأوضاع))[٩]، وذلك لان ((اللفظ في ذاته كالموسيقى يخلب الاذن ويلذ الشعور وان لم يترجم، اما المعنى فكالكهرباء، اذا لم يكن لفظه جيد التوصيل انقطع تياره فلا يقرب ولا يطرب))[١٠]، وعليه وجب التعرف على ما هو صالح في مكانه، وما هو غير صالح من الالفاظ مع تبيان سبب ذلك.

اللفظ الحسن

اختلف النقاد والمهتمون باللغة العربية قدماء ومحدثون حول جمالية اللفظة وحسنها ومنهم من وضع لذلك شروطاً اشترطها، ومنهم من ترك الامر سائباً يتعلق بمكان اللفظ في النص او العبارة أو الجملة، لذا فسنعرض في هذا المجال لبعض من هذه الاراء أو التحديدات في المضان المختلفة فمجال البحث لا يسمح بعرض كل ما كتب عن ذلك من التعرف على ما اتفقت عليه هذه الاراء وما اختلفت حوله ولنبدأ بابن الاثير الذي يرى ان جمال وحسن اللفظ ياتي من فصاحته ((والفصيح من الالفاظ هو الظاهر البين وانما كان ظاهراً بينا لانه مألوف الاستعمال))[١١] ويعتقد كذلك ان حسن اللفظ وقبحه غير مختص بشخص دون آخر[١٢] ((فان من حسن اللفظ خفة الحركات مما يساعد ذلك على خفة النطق بها لذلك يذكر بانه اذا توالت حركتان خفيفتان في كلمة واحدة لم تستثقل، ويرى ان للتركيب فوائد قد لا تكون لغيره ففي التراكيب تحدث فوائد التاليف والامتزاج ما يخيل للسامع ان هذه الالفاظ ليست تلك التي كانت مفردة))[١٣].والاختلاف فيما ورد هو مسلمات مستنبطة مما جاء على لسان الاعراب وما تعرضه السليقة العربية والفطرة الاولى، والجرجاني يرى : ((ان الالفاظ لا تتفاضل من حيث هي الفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة))[١٤] فموقع الكلمة من الجملة هو الذي يقرر مدى حسنها وقيمتها ((ومما يشهد لذلك انك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر))[١٥] واذا كان رأي الجرجاني في ان موقع اللفظة هو الذي يصنع قيمتها فابو هلال العسكري يرى : ان هنالك الفاظاً كريمة وأخرى غير كريمة : ((واذا اردت ان تصنع كلاماً فتنوق له كرائم اللفظ واجعلها على ذكر منك ليقرب عليك تناولها))[١٦] ويضيف لذلك قوله : ((ليس الشأن في ايراد المعنى لان المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي وانما هو في جودة اللفظ وصفائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب والخلوص من اود النظم والتاليف))[١٧]. فالنص الجيد هو ما توفر على اللفظ الكريم الجيد والطلي والريان الذي يمتاز بحسن سبكه ومتانة نسجه البعيد عن خلل النظم وضعف التاليف، وان جودة اللفظ تتوقف على قدرة الكاتب في التحكم باماكن الالفاظ، ((ومن وضع الالفاظ موضعها الا يغير عن المدح بالالفاظ المستعملة في الذم ولا في الذم الالفاظ المعروفة للمدح، بل يستعمل في جميع الاغراض الالفاظ اللائقة بذلك الغرض))[١٨]، ويضيف الخفاجي بدقة اكثر رأيه في اللفظة الحسنة فيؤكد انها اللفظة المتباعدة الحروف، ((فالحروف اصوات تجري من السمع مجرى الالوان من البصر والالوان المتباعدة في المنظر احسن من الالوان المتقاربة، وكذلك من هذه المعايير حسن الواقع في السمع مثال ذلك تسمية

الغصن غصناً، أو فناناً أحسن من تسميته عسلوجاً، وكذلك يجب ان تكون الكلمة جاريه على القواعد العربية في التصريف غير شاذة والا تكون كثيرة الحروف))[١٩]، و((ان تكون الالفاظ منقادة لما ترادله، غير مستكرهة ولا متعبة لطيفة الموالج سهلة المخارج))[٢٠]، فمتى ((كان اللفظ كريماً في نفسه متخيراً في جنسه وكان سليماً من الفضول بريئاً من التعقيد حبيباً الى النفوس اتصل بالاذهان والتحم بالعقول))[٢١]، فالافضلية لبراءة اللفظ من التعقيد وسلامته من الفضول، وهناك من يرى ان على الكاتب ان يبتعد عن ((التكلف للفظ الغلق والتطلب للخطاب المستغرب))[٢٢].

اما المتاخرون فيرون : ان " اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى ابداع وخلق، لان الكلمة ميتة ما دامت في المعجم واذا ما وضعت في موضعها الطبيعي من الجملة دبت فيها الحياة عليه فان استطعت ان تجد الكلمة التي لا غنى عنها، وتمكنت من ان تنفخ فيها الروح وقدرت على ان تضمن الدقة، والقوة، والصدق : وتكون قد تركت فضول الكلام، وتمكنت من نسج الالفاظ، بطريقة ملائمة، فالتلاؤم كما هو واجب للكلمة ذاتها بائتلاف الحروف وتوافق الاصوات، وحلاوة الجرس، وعن طريق السمع يمكننا تمييز اللفظ الحسن من اللفظ القبيح فما استخفه كان حسناً وما استثقله كان قبيحاً[٢٣]. ومنهم من يرى ان نظم الكلام يعتمد على ما توحيه الالفاظ من افكار ترتبط بواقعها الموسيقي التي تاتلف مع اختها من طريقة، ولا تاتلف مع الاخرى عن طريق موسيقاها، وللجمع دوره في جمال اللفظ اذ يكون لجمع اللفظ جمال في مكان لا يكون لها في مكان آخره مثال ذلك جمع العيون اجمل من الاعين والنساء اجمل من النسوان وللموقع داخل الجمل اثره في حسن اللفظ فقد تكون الكلمات جميلة اذا تفردت كل واحدة في جملة لكنها لو اجتمعت في جملة واحدة لصارت قبيحة، ولموقع الحرف في الكلمة اثر في جمالها وقبحها فبعض الحروف يدل على القوة كالقاف وآخر يدل على الرقة كالسين وهناك الفاظ تتخيل فيها الجزالة دون الرقة وهناك العكس ويترك لذوق الكاتب، أو الاديب التحكم بجمال اللفظ والاديب ذو الذوق السليم يتذوق الالفاظ ويتذوق تركيبها، ويختار من الالفاظ للجمل ما يحسن في ذوقه لأن : فصاحة الكلام تتعين في ظهوره، وبيانه، وهذه بدورها تاتي من : سهولة فهمه دون الحاجة الى استخراجه من كتاب، وقد تحكم الاذن على جودة اللفظ وحسنه فالالفاظ تدخل في مجال الاصوات فما يحسن وقعه في الاذن فهو المطلوب، وما تنفر منه فهو القبيح[٢٤] فاللغة ((ليست مجموعة من الالفاظ بل هي مجموعة من العلاقات))[٢٥]، ومما يزيد العلاقة عمقاً هو: ((اخضاع الفكرة، أو الاحساس للفظ، وهو ما يميز الادب عن غيره من الفنون))[٢٦] وبهذا تعطي القيمة للفظ أكثر مما تعطى للفكرة : ولكي يكون اللفظ حسناً عليه ان ((يكون سمحاً سهل مخارج الحروف من موضعها عليه رونق الفصاحة مع خلو من البشاعة))[٢٧]، وينقل الدكتور كمال يوسف الحاج رأي جوستاف لوبون دون ان ينسبه الى مصدر بقوله : ان الالفاظ والصيغ، اذا ما استخدمت بحذق اتفق لها من السلطان الخفي ما عزاه اليها المؤمنون بالسحر فيما مضى))[٢٨]، وللدكتور الحاج وجهة نظر اخرى يقول فيها : ان ((سلطان الالفاظ مرتبط في الصور التي يثيرها وهو مستقل عن معناها الحقيقي))[٢٩] واللفظة العربية لها من المرونة والقدرة بقدر ما يحتاج لها من الاستعمالات لان كثرة الاستعمال لا بد ان تخلق كلمات جديدة تلبي مطالب الحياة والاحياء [٣٠]، وما ذكر مجتمعاً يقدم لنا توضيحاً مهماً عن نوع اللفظ الحسن عند النقاد القدماء والمحدثين وهو ما يدلنا بالتالي على كيفية اختيار اللفظة الحسنة ومدى تاثيرها على العمل الادبي ككل.

اللفظ الضعيف

ذكرنا قبل قليل اراء النقاد القدماء والمحدثين حول اللفظ الحسن، وكما انهم وضعوا للفظ الحسن عدة صفات ومزايا، كذلك وضعوا للفظ الضعيف عدة متالب تضعه في المكان المرذول من الاستعمال ومن هذه الالفاظ ما يسميه ابن الاثير بالوحشي الغليظ وقد سماه بهذين الاسمين اولاً لغرابة استعماله ولثقله على السمع وهو ما يمكن ان يسمى بالمتوعر ومن الالفاظ التي يضعها ابن الاثير في موضع الضعيف العامي الذي استهلكته العامة في استعمالها لدرجة الابتذال واللفظ الذي يتألف من حروف يثقل اللفظ بها سواء أكانت طويلة أم قصيرة، ولتنافر الحروف في اللفظة الواحدة دور في ضعف المفردة كما ان لمكان المفردة من الجملة دور في القبح[٣١]. ولابن الاثير اراء اخرى ذكرها في كتاب الاستدراك منها ان ((الالفاظ تعاب لكونها كريهة يمجها السمع، أو ان سبكها وتاليفها مضطرب او مكروه[٣٢] ولا تبتعد اراء عبد القاهر الجرجاني وابن سنان الخفاجي وابو هلال العسكري عما ذكره ابن الاثير من الصفات التي تؤول الى ضعف اللفظ، ولا يبتعد الجاحظ كثيراً عما ورد، اذ يذكر في كتاب البيان والتبيين ما يلي : ((وكما لا ينبغي ان يكون اللفظ عامياً ساقطاً سوقياً فكذلك لا ينبغي ان يكون غريباً وحشياً))[٣٣]، ولاحمد بن فارس الاراء نفسها، فهو كما يحث على الابتعاد عن مخالفة القياس اللغوي والنحوي والصرفي في الكتابة يقول : ((ولم يتسنم احد ذروة البلاغة مع التكلف للفلظ الغلق والتطلب للخطاب المستغرب))[٣٤]، اما المحدثون من البلاغيين فيرون اضافة الى ما مر وجوب استعمال الكلمة في مكانها الطبيعي من الجملة لذلك يقول الزيات : ((ان الكلمة اذا تمكنت من موضعها الاصيل دلت على المعنى كله واذا حشرت فيه حشراً أو قسرت دلت على بعض المعنى او بانت عن غيره))[٣٥]، وللاستاذ احمد امين رأي آخر هو ان اللفظة لها زمن تستعمل فيه فان استعملت في غيره فسيتملكها العيب ((لان الالفاظ تتبع الزمان، فقد تكون الكلمة لطيفة في زمن لا عيب فيها ثم ياتي زمن تعاب لاستعمالها في معنى رديء))[٣٦]، والدكتور محمد غنيمي هلال يدلي بدلوه هو الاخر فيقول : ان ((لا فضيلة للالفاظ من حيث هي الفاظ الا في خلوها من الغرابة ومن تنافر حروفها في النطق وهذه ميزة سلبية ضئيلة القيمة))[٣٧]، وهناك جملة اراء للدكتور جميل سعيد يحدد بها نوع الضعف الذي يعتور اللفظ فيرى ان اللفظة الغريبة والثقيلة والتي تشترك فيها المعاني على ان يكون احد هذه المعاني مستقبحاً أو ان تشترك معاني اللفظة بين العامية والفصحى أو ان تكون اللفظة دخيلة او اعجمية ولا يتوانى الدكتور جميل من الاشارة الى ان ذوق الكاتب له فعله في اختبار المفردات السليمة والمناسبة للنص وكذلك مكان اللفظ يحكم هو الاخر على جودته وضعفه وهناك، بعض انواع التكرار القبيح والغموض له اثره في قبيح اللفظ، ومن العيوب الكثيرة نوع من الحشو وتقارب مخارج حروف اللفظ[٣٨]، وللدكتور نعمة العزاوي تاكيدات على ما مر واضافات اخرى ينقلها عن النقاد العرب وهي كثرة استعمال اسماء الاشارة والموصولات والضمائر: تعد عناصر ضعف في النص الوارد للكاتب من اعدادها[٣٩] ومن الامور التي تضعف اللفظ ايضاً ((الهجنة والركاكة والاسهاب والجفاف والسهو واللحن، وضعف التاليف والتعقيد اللفظي والمعنوي وتتابع الاضافات[٤٠] هذا بعض ما يقال في الكلمة كما اعتقد من عوامل تشخيص ضعف المفردة في الاستعمال اليومي.

المعنى الحسن

كما ان للكلمة في الجمال العام للنص فللمعاني اماكنها فيه وهي تحسن فتضفي على النص جمالا وحسناً يبعد عنه الكثير من الهنات التي يخلقها استعمال اللفظ الضعيف وياتي بها طرح الافكار المهلهلة، وكما وضع البلاغيون قوانين وأقسية للفظة فقد وضعوا للمعاني أقسية هي الاخرى ومن ذلك ما يقوله صاحب

الطراز فيما يقول : ((اعلم ان ارباب علوم البلاغة متفقون على ان المجاز ابلغ من الحقيقة في تادية المعنى، وعلى ان الاستعارة اقوى من التصريح وان الكناية ادخل في افادة المعنى من تلك الطرائح الموضوعية(٤١) ومما يمكن اضافته لحسن المعنى قابليته على التكيف اذ ((ان عكس المعاني على اختلاف وجوهها غير متعذر على من احسن عكسها واستعمالها في الابواب التي تحتاج اليها))[٤٢] ومن جمالية المعنى ((ان يذكر مع اخيه لا مع اجنبي مثاله ان تذكر وصفاً من الاوصاف وتقرنه بما يقرب منه ويلتئم به فان ذكرته مع ما يبعد منه كان ذلك قدحاً في الصناعة وان كان جائزاً))[٤٣]، ويرى العسكري ان بلاغة القول تتوقف على ((التقرب من المعنى البعيد والتباعد من حشو الكلام))[٤٤]، لقد عرفنا ان جمال المعنى يكمن في تحسينه وتقريبه من الاذهان وعلينا ان نفهم ايضاً ان ((لا خير في المعاني اذا استكرهت قهراً))[٤٥]، فالمعنى الذي ينثال على القارئ او السامع دون تكلف او مشقة في اخراجه او الاتيان به من حسناته ايضاً ويؤكد ابن سنان الخفاجي ما جاء اعلاه فيقول: ((ان من شروط الفصاحة والبلاغة ان يكون معنى الكلام واضحاً ظاهراً جلياً لا يحتاج الى فكر في استخراجه وتأمل تفهمه))[٤٦]، هذا اذا ما علمنا ان العناية في الشيء تمنحه الدقة والجمال وتصقله وتبعد عنه الاعوجاج والمعروف عند العرب البلاغة في القول والفصاحة في الكلمة لذلك فهي لا ترى بأساً من أن تعتني بالمعاني امعاناً منها قي تزيين القول وتجميله وهو ما يكون مدعاة لحسنه وجماله ومن ذلك ما يؤكده ابن الاثير فيقول : ((اعلم ان العرب كما كانت تعتني بالالفاظ فتصلحها وتهذ بها فان المعاني اقوى عندها وأكرم عليها وأشرف قدراً في نفوسها))[٤٧]، مر آنفاً ما يمكن ان نعده من حسنات المعنى وجمالياته مع ما يؤكده البلاغيون من ان احسن المعاني لا تبتعد عن الشروط العامة للنحو والصرف واللغة بشكل عام ودرجة التزامها بها[٤٨]، وللمحدثين بعض الخطرات حول المعنى سانقلها وأترك ما أقتبسوه من اراء الاقدمين لانه ترديد عقيم لا جدوى منه ومن ذلك ما يراه الاستاذ احمد حسن الزيات : من ان لجودة السبك دخل في جمال المعنى اذ يرفعه من حضيض الضعف الى ناحية الجودة فيقول : ((ان المعنى المبذول او المرذول أو التافه قد يتسم بالجمال ويظفر بالخلود اذا جاء سبكه وحسن معرضه))[٤٩]، ومن انواع المعاني الحسنة ما اسماه الاستاذ أنيس المقدسي بروعة الانتقال وهو الوثوب من معنى الى معنى أو من حالة الى حالة وثوباً يحرك النفس ويزيد المعنى جمالاً وحسناً يتمثل ذلك فيما يطلق عليه اسم الالتفات وهو الخروج من صيغة الى صيغة وكذلك ما يسمى جمال التمثيل ويقصد به تفسير المعاني الموهومة بالصورة المشاهدة وبصورة اوضح ابراز المتخيل في صورة المتحقق والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب وله تاثير في النفس ما لا يؤثر وصف الشيء في نفسه[٥٠]، هذه هي صفات المعنى الحسن كما رآها النقاد وأتفقوا عليها وعلى الكاتب الرغب في الاقتراب من الاسلوب العربي السليم التقيد بها.

المعنى الضعيف

لم يتناول البلاغيون المعنى الضعيف الا بلمحات واشارات بسيطة لا يمكنها ان تشكل جزءاً ذا قيمة تذكر لكننا سنعرض لهذه الاراء على بساطتها وايجازها ومن هذه العيوب المعاظلة وكلنا يعرف ان المعاظلة من عيوب العبارة لكن ابن الاثير يذكرها عيباً من عيوب المعنى فيقول : ((واما المعنوي فهذا بابه وموضعه وهو كتقديم الصفة او ما يتعلق بها على الموصوف وتقديم الصلة على الموصول))[٥١]، اذاً فالمعاظلة عند ابن الاثير هي الخلل الذي يكتنف المعنى جراء التغيير الذي يحدث فيه بتغير التسلسل النحوي للمفردات كما الفته السليقة العربية وهو ما يحدث في عالب احواله في الشعر، عند الضرورة ولابن الاثير رأي آخر هو ان المعنى يحسن اذا ذكرته مع اخيه ((اما اذا ذكرته مع ما يبعد عنه كان ذلك قدحاً في الصناعة))[٥٢]، ولا

يختلف صاحب الطراز مع ابن الاثير في ان من التقديم ما هو قبيح والتاخير مما يفسد المعنى ومن انواع هذا التقديم تقديم المفعول على فعله وتقديم الخبر على مبتدأه في نحو قولك : [قائم زيد] وتقديم الحال على صاحبه وتقديم المستثنى على المستثنى منه[٥٣]، ويضيف صاحب الطراز ما يفيد بان النص اذا كان معناه ((ركيكاً نازلاً فانه لا يوصف بالبلاغة اصلاً))[٥٤]، ومن عيوب المعنى الاستكراه والانغلاق اذ يذكر ذلك العسكري فيقول : ((الاخير في المعاني اذا استكرهت قهراً، ويعقب فيقول واجود الكلام ما لا ينغلق معناه، ولا يستبهم مغزاه ولا يكون مكدوداً مستكرهاً أو متوعراً منقعراً، ويكون بريئاً من الغثاثة عارياً من الرثاثة))[٥٥]، لم يزد المحدثون شيئاً ذا بال على ما ورد اعلاه ولم يتعرض لضعف المعنى كل من اطلعت على كتاباتهم لذلك اكتفي بما ورد اعلاه.

القسم الثاني

ائتلاف اللفظ مع المعنى

تتوقف قدرة النص على الجودة وحسن العرض على درجة الاتفاق بين اللفظ والمعنى وخدمة احدهما للاخر وقد وضع النقاد والبلاغيون اسسا وضوابط لقياس هذا الاتفاق ودرجة حسنه وكيفية ماله الى القبح اذا اختل هذا الاتفاق او جاء على غير ما اتفق عليه من اقيسة الجمال.

الائتلاف الحسن

لقد اهتم العرب بالموالفة بين الالفاظ والمعاني وكانوا يعنون بالالفاظ خدمة منهم للمعاني عليه فقد كانوا يتأنقون باختيار اللفظ ورصفه في مكانه ففي ذلك يقول ابن الاثير ((فاذا رايت العرب قد اصلحوا الفاظهم وحسنوها ورققوا حواشيها وصقلوا اطرافها فلا تظن ان العناية اذ ذاك انما هي بالفاظ فقط بل هي خدمة منهم للمعاني))[٥٦] لذلك فقد كانت عنايتهم تنصب على ان يتلائم اللفظ مع المعنى فيتفق معه في مقدار المعنى وعدد الالفاظ وكذلك ان يتفقا في الايضاح والابانه ويضيف ابن الاثير فيقول ((واما الذي يجب توخيه واعتماده فهو ان يسلك المذهب القويم في تركيب الالفاظ على المعاني ،بحيث لاتزيد هذه على هذه مع الايضاح والابانة))[٥٧] وللجرجاني راي يختلف قليلا عن راي ابن الاثير اذ يرى : ان ((الالفاظ خدام المعهاني والمصرفة في حكمها ... فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن ازال الشئ عن جهته))[٥٨] ويزيد الجرجاني الامر دقة ووضوحا فينسب التلاؤم الى المعنى داخل اللفظة الواحدة لان الفظ يكون فاضلا او عير فاضل عندما تتلائم معانيه الى المعاني التي تكون بين لفظة واختها التي بعدها ويؤكد الحرجاني ما جاء بقوله : ان اللفظ لاتظهر قيمته وجماله وحلاوته في كونه صوتا مسموعا وحروفاً مرتبه تناسب في النطق للائتلاف والاتساق العجيب الذي يرد بين معانيها وتركيباتها في السياق العام للنص ويمعن الجرجاني مسرفا في مناسبة اللفظ الى المعنى فيما ينقله العرب ذاكرا قولهم الذي يفيد معناه بان الكلام لايمكن ان نطلق عليه اسم البليغ حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه ولايكون اللفظ اسبق الى سمع السامع من معناه الى قلبه ويزيد الجرجاني الامر وضوحا فيفيد ان ليس للكاتب او الاديب والشاعر من غرض من سلسلة الكلمات بالنطق فقط بل اذا تناسقت دلالاتها وتقابلت معانيها بطريقة يرتضيها العقل ويرتاح لها الذوق ويوضح الحرجاني كيفية الائتلاف وذلك بان يرتب الكاتب المعاني اولا في نفسه ثم ينسق الالفاظ في النطق على نفس ترتيب المعاني واوخلت الالفاظ من المعاني لم يتصور ان يجب فيها نظم وترتيب لسياق قوى ظاهر[٥٩] لهذا يتضح ان الائتلاف في اللفظ الحسن متوقف على التوافق بين النطق والنفس.

اما الخفاجي فان من شروط الفصاحة لديه المناسبة بين لفظ ولفظ من طريق المعنى[٦٠] والائتلاف الحسن قد يكسب اللفظ مزية وفضيلة تميزها عنها في حالة الافراد اذ:(ان الالفاظ اذا كانت مركبة لافادة المعاني فانه يحصل لها بمزيه التركيب حظ لم يكن حاصلا مع الافراد))[٦١] وهناك من يرى ان للمعاني الفاظا خاصة اذا اتى الكاتب بها قي كتابته اتسعت مع المعاني فكونت نصوصا جميلة لانه يضع للمعنى الجميل الفاظه وللقبيح الفاظه ايضا ف((للمعاني الفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها)) [٦٢] هذا من حيث خصوصيه اللفظ بالمعنى وهناك راي للجاحظ لايبتعد كثيرا عن هذا الرأي يفيد بانه :ينبغي للمتكلم ان يعرف اقدار المعاني ويوازن بينها وبين اقدار الحالات فيجعل لكل من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما حتى يقسم اقدار الكلام على اقدار المعاني ويقسم اقدار المعاني على اقدار المقامات))[٦٣]وفيما ذكر وردت جملة اراء اختلفت او اتفقت فهي في منتهاها تصب في مجرى النص وكيفية الوصول به الى اجمل صيغة وافضل نظام وبعد استعراض اراء القدماء لابد من التعريج على اراء المحدثين ففيهم من يقول :

الكلام كائن حي روحه المعنى وجسمه اللفظ .... وترتيب الالفاظ في النطق لايكون الا بترتيب المعاني في الذهن))[٦٤] وهذه العلاقة بين اللفظ والمعنى لا تفتأ تؤثر في الاسلوب فهو ((خلق مستمر، خلق الالفاظ بواسطة المعاني وخلق المعاني بواسطة الالفاظ))[٦٥]، ويبتعد القائل اكثر فيؤكد ان ((خصوصية اللفظ هي دلالته التامة على المعنى المراد ... بل ان اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى ابداع وخلق لان الكلمة ميتة ما دامت في المعجم))[٦٦]، ويؤكد الاستاذ أحمد أمين ما جاء اعلاه فيقول : ((ومن الانسجام ايضاً الذي أدركه البلغاء التوافق بين الجمل ومعانيها فاذا كان المقام مقام قوة وبطش وكانت المعاني شديدة ناسب ان تكون الالفاظ قوية كأنها الحجارة واذا كان المعنى رقيقاً وديعاً وجب ان تختار له الجمل الرقيقة الوديعة وهكذا))[٦٧]، اذن فهو يرى ان الائتلاف يقع بين تناسب النوع بالاتجاه الواحد وله رأي متميز بين الاراء لا بد من ذكره فهو يرى: ((الالفاظ تتبع الزمان فقد تكون الكلمة لطيفة في زمن لا عيب فيها، ثم يأتي زمن تعاب فيه لاستعمالها في معنى رديء))[٦٨]، ومن الاراء ما أكدته اللغة في أكثر من مكان وهو ما يمكن ان نسميه التطور الحاصل لمعنى الكلمة ومثاله كلمة الكنيف))[٦٩] التي كانت تسمى في زمن من الازمان الارض الخضراء وأصبحت حالياً تعني معنى قبيحاً ومثلها الجلل[٧٠] التي كانت تعني في فترة الامر الصغير والعظم في وقت واحد اما الان فقد اصبحت تعد الامر العظيم فقط.

ومن المحدثين من يرى : ((ان الكتابة تتوقف على شخصية الاديب نفسه، ومظهر الشخصية هو مقدار الصلة بين اللفظ والمعنى، فمن الادباء من يطابق بين اللفظ والمعنى ومنهم من يعنى باحدهما دون الاخر))[٧١]، ومنهم من يقول بأن : ((الالفاظ قوالب المعاني فيجب ان يكون ترتيبها الوضعي بحسب ترتيبها الطبعي))[٧٢]، وهذا يعني ان علاقة اللفظ يجب ان تدرس حسب تدرج النص الادبي من حيث المعنى وعلى الكاتب ان ((يساوي في المنزلة بين اللفظ والمعنى ويحفظ لكل منهما حقه من وجوب العناية به))[٧٣]، وقد تتعلق قمة الاديب الفنية ((بقدر ما يجيد فيهما معاً))[٧٤] لذلك يتعلق الامر على الادب كله وما يحققه في مضمار التاثير وعلو القيمة لدرجة ان تقسيم مقدار الالفاظ على مقادير المعاني لحد المطابقة : ((هي علة التاثير وتحقيق غاية الادب))[٧٥]، ويشير غيره الى الصناعة اللفظية التي يعمد اليها البلاغيون فيقول فيه ما معناه : ان جمال النص الادبي هو ما يتوقف على جمال اللفظ أكثر من توقفه على المعنى ويضيف مشيراً الى اراء النقاد العرب الذين كانوا يرون ان ذروه الجمال في النصوص الادبية تتوقف على قدرة الكاتب في ان يجمع بين الاختيار الجيد للالفاظ مع الدقة في انتخاب المعاني الراقية ففي هذين الاختيارين يتمثل جمال البلاغة وحسنها مع ان الكلام سيتم له الرونق والماء باجتماع هذين العنصرين معاً من اطرافه المختلفة لان

خروج الصورة الى حيز الواقع لا تتم بالشكل فقط بل تتعداه إلى ابعد من ذلك لان مجموع العمل الذهني الذي يجهد الانسان نفسه في استخلاص النصوص الممتازة لا يتم الا بتلازم المعاني والالفاظ التي تدل عليها في جمل منسقة محكمة البناء والتركيب وذلك لان الائتلاف اساسي النتاج العام في النص الادبي ولا يمكن للنص ان يبرز بشكله المرجو بالاعتماد على عنصر من هذين العنصرين فلا يمكن اعتماد المعنى فقط كمعوض للالفاظ ولا الالفاظ لانها بمكانها الذي تشغله من الجملة بوصفها عنصراً لايصال المعنى تظهر درجة قيمتها ولا اهمية لكونها الفاظ مجردة [٧٦] وللدكتور جميل سعيد تأكيد على الكاتب الالتزام به هو ان التلاؤم لا يتم الا بان يكون للفظ الواحد معنى واحد فقط يتضح به الفهم وتتوحد الصورة لان على الكاتب او المتكلم ((ان يتجنب الالفاظ التي تشترك فيها المعاني وعليه ان يحترس بالقرينة في مثل هذه الاحوال التي لا يدري بها أي المعاني هو المراد))[٧٧]، ومن الاراء الجديرة بالذكر رأي يقدمه الدكتور نعمة العزاوي لأرسطو منقولاً عن كتابه بلاغة أرسطو أرى لزاماً علي ان اذكره وقد حاولت جاهداً الحصول على الكتاب فلم أفلح، جاء في هذا الراي : ان ((التفكير في اللفظ والمعنى تفكير جملي يفكر فيه الاديب مرة واحدة وتحركه عقلية واحدة فاذا رتبت المعاني في الذهن ترتيباً منطقياً انحدرت على اللسان بالفاظها الملائمة لها))[٧٨]، اذاً فأرسطو يرى القدرة على الملائمة بين اللفظ والمعنى متوقفة على درجة قدرة الكاتب على التوفيق بينهما عن طريق التفكير الجملي لتقديم نص ادبي سام، ومن الاراء الجديرة بان تدخل في سياق هذا البحث، القول : بان على الباحث ان ينتبه الى التغير الذي يدخله الزمن على معاني الالفاظ أو ما توحيه اللفظة في بيئة معينة أوضح وأعمق مما توحيه في بيئة أخرى اذ قد تتغير معاني الالفاظ العادية ويصبح لها مفهوم جديد ضد المفهوم القديم، ... فلكلمة الساقية مفهومها في ذهن القروي أوضح منه في ذهن سكان المدن والحواضر[٧٩]، ويصف آخر بان المعنى ينتج مما يشكله اتصال الالفاظ والتقاؤها بعضها ببعض فيقول : ((ان المعنى راجعاً لعلاقة الألفاظ بعضها ببعض فتغير المعنى بتغيير هذه العلاقات وان لم تتغير الألفاظ في ذاتها))[٨٠] وفي رأيي ان هذا أمر حتمي لا جدال ولا جديد فيه لذلك فقد تركته الى آخر القائمة، لا شك في ان ما جاء أعلاه هو خلاصة لا بد لكل كاتب وأديب ان يراعيها في كتاباته لكي ينهض بنص أقل ما يقال عنه انه مقبول لغة ومعنى وذوقاً قادر على الاحاطة بمدركات الناس ومستوياتهم وبقدرة معنوية عالية وصورة لفظية جميلة.

الائتلاف الضعيف

لا بد في هذه العجالة ان نتعرض للنوع الثاني من الائتلاف وهو الائتلاف الضعيف لكي نتمكن من تشخيصه أو نشير اليه من باب الاحاطة العلمية والقدرة على التمييز بين القوة والضعف، فمن عيوب الائتلاف الاعتراض او ما يسميه بعضهم الحشو وهو ما ياتي في الكلام لغير فائدة فأما ان يكون دخوله فيه كخروجه منه وأما ان يؤثر في تأليفه نقصاً أو في معناه فساداً [٨١] فاذا كان نوع من انواع الحشو يورث الضعف في السياق العام فان الخلل الحاصل من تغليب الالفاظ على المعاني مرفوض هو الآخر اذ ان ((الالفاظ خدام المعاني والمعرفة في حكمها فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن ازال الشيء عن جهته واحالته عن طبيعته وذلك مظنة من الاستكراه، وفيه فتح ابواب العيب والتعرض للشين))[٨٢] ومن الضعف الوارد في التاليف عكس الصورة السابقة وتغليب المعنى على اللفظ اذ يقول الجرجاني : ((اعلم ان الداء الدوي والذي اعيى امره في هذا الباب غلط من قدم الشعر والنثر بمعناه وأقل الاحتفال باللفظ وجعل لا يعطيه من المزية – ان هو أعطى – الا ما فضل على المعنى))[٨٣]، فكما ان اقحام اللفظ على السياق يورث ضعفاً في النص أو تغليب المعنى على اللفظ يؤهن النص فكذلك الاستكراه الذي يحدث لاحدهما باقحامه في النص هو الآخر ما

يحط من قدرة النص فقد قيل : ((لا خير في المعاني اذا استكرهت قهراً ولا الالفاظ اذا اجبرت قسراً ولا خير فيما اجيد لفظه اذا سخف معناه. ولا في غرابة المعنى اذا شرف لفظه مع وضوح المغزى وظهور المقصد))[٨٤]، ومن عوامل الضعف الاخرى التي تضعف الائتلاف في النص، الخلل الناتج عن التمايز بين اللفظ والمعنى من حيث الجزالة والضعف ((فان كان المعنى جزلاً واللفظ غير فصيح او كان اللفظ فصيحاً وكان معناه ركيكاً نازلاً، فانه لا يوصف بالبلاغة اصلاً))[٨٥]، ومن عيوب الائتلاف الاخرى اشترال اللفظ في أكثر من معنى لان من أقبح أنواع الائتلاف هو : ((استعمال اللفظة، بان تشترك فيها المعاني وان يكون احد هذه المعاني مستقبحاً ثم يكون غير مقصود بكلام المتكلم))[٨٦] مما يضيع على السامع أو القارئ العرض المطلوب من النص الادبي فتضيع الفائدة المرجوة منه وتنتفي الحاجة اليه بعد ذلك.

الخاتمة

في ختام هذا البحث لا بد من الاشارة الى ان الكثير من الكتاب والمعنيين في القول والكتابة، أخذوا يبتعدون كثيراً عن السياق العربي السليم في الكتابة والكلام، ويعتمدون على الاساليب المترجمة، والعامية، والمشوهة وسيلة لهم عند الحديث والكتابة، وأخص منهم بالذكر الإعلاميين، والإذاعيين خاصة والمدرسين وممتهني التعليم لذلك أرى ان يصار الى اجبار ممتهني الكتابة والكلام في المؤسسات الخاصة بذلك الرجوع وباستمرار الى منثور القول وموزونه مما كتبه الأقدمون من نصوص شعرية ونثرية وتدريب الأذن واللسان على كل سليم منها للنهوض باللغة العربية المعاصرة وردها الى أصلها وسليقتها القويمة والله من وراء القصد.

الهوامش

١. كلام العرب ٩٨
٢. النقد الادبي ١٠٧
٣. نفسه ١٠٧
٤. نفسه ١٠٨
٥. في الميزان الجديد ١٤٣
٦. ينظر نفسه نفسها
٧. دفاع عن البلاغة ٦٣
٨. في الميزان الجديد ١٤٩
٩. نفسه نفسها
١٠. دفاع عن البلاغة ٢٨
١١. المثل السائر ١٥/١
١٢. ينظر نفسه ٢٢٢/١
١٣. ينظر نفسه ٢٦٨/١-٢٧٠
١٤. دلائل الاعجاز ٣٧
١٥. نفسه ٣٨
١٦. الصناعتين ١٠٠
١٧. نفسه ١٠٢٣

١٨. سر الفصاحة ١٥٣
١٩. نفسه ٥٤-٥٥
٢٠. عيار الشعر ٥
٢١. البيان والتبين ٢١٧
٢٢. متخير الالفاظ ٤٤
٢٣. ينظر دفاع عن البلاغة ٨٢-١١٠
٢٤. ينظر النقد الادبي ٥٥-٢٤٥
٢٥. في الميزان الجديد ١٤٢
٢٦. نفسه ١٤٩
٢٧. البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية ومناهجها ومصادرها ١٠٣
٢٨. دفاعا عن اللغة العربية ٨٨
٢٩. نفسه نفسها
٣٠. دراسات في فقه اللغة ٢٩٢
٣١. ينظر المثل السائر ١٦٥/٢-٤١٠
٣٢. ينظر الاستدراك ٣٢
٣٣. البيان والتبين ٩٠
٣٤. متخير الالفاظ ٤٤
٣٥. دفاعا عن البلاغة ٨٢
٣٦. النقد الادبي ٢٤٦
٣٧. النقد الادبي الحديث ٢٧١
٣٨. ينظر دروس في البلاغة وتطورها ١٨٥-١٩١
٣٩. النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري ٢٧٥
٤٠ اساليب النثر الفني ٥٦
٤١. الطراز ٣٠٣/١
٤٢. عيار الشعر ٧٨
٤٣. المثل السائر ١٥٤/٣
٤٤. الصناعتين ٣٤
٤٥. نفسه ٤٤
٤٦. سر الفصاحة ٢١٢
٤٧. المثل السائر ٢/ ٦٥
٤٨. ينظر دلائل الاعجاز ٦٤
٤٩. دفاع عن البلاغة ٢٦
٥٠. تطور اساليب النثر في الادب العربي ٥٣
٥١. المثل السائر ٢٧٧/٢
٥٢. المثل السائر ١٥٤/٣

٥٣. ينظر الطراز ٢/٦٨-٧٣
٥٤. نفسه ١/١٢٥
٥٥. الصناعتين ٤٩
٥٦. المثل السائر ٢/٦٦
٥٧. نفسه ٢/٢٦٩
٥٨. من اسرار البلاغة في علم البيان ٥
٥٩. ينظر دلائل الاعجاز ٣٧-٣٤٩
٦٠. ينظر سر الفصاحة ١٦٢
٦١. الطراز ١/١٢٦
٦٢. عيار الشعر ٨
٦٣. البيان والتبين ٨٧-٨٨
٦٤. دفاع عن البلاغة ٦٠-٦٢
٦٥. نفسه ٦٢
٦٦. نفسه ٨٢
٦٧. النقد الادبي ١١٢
٦٨. نفسه ٢٤٦
٦٩. لسان العرب مادة نفس
٧٠. ينظر الاضداد قطرب ٢٤٦و ينظر الاضداد للاصمعي ٩ وينظر الاضداد لابي حاتم ٨٤ وينظر الاضداد لابن السكيت ١٦٧
٧١. الاسلوب ٦
٧٢. علوم البلاغة ١٠٤
٧٣. البيان العربي ٥٥
٧٤. نفسه ٥٥
٧٥. نفسه ٥٧
٧٦. ينظر النقد الادبي الحديث ٢٦٠-٢٧٣
٧٧. دروس في البلاغة العربية وتطورها ١٨٦
٧٨. النقد اللغوي عند العرب ١٤٧
٧٩. من اسرار اللغة العربية ٢٦٤-٢٦٥
٨٠. الاسس الجمالية ٢٤١
٨٢. من اسرار البلاغة ٥
٨٣. دلائل الاعجاز ١٩٤
٨٤. الصناعتين ٤٤
٨٥. الطراز ١/١٢٥
٨٦. دروس في البلاغة ١٩١

روافد البحث

١. اساليب النثر الفني، العكام، لطيف محمد، الاداب ن النجف، ١٩٧٤.
٢. الاستدراك، ابن الاثير أ ضياء الدين، مطبعة النهضة المصرية، القاهرة،بلا.
٣. الاسس الجمالية، اسماعيل، عز الدين (دكتور)،دار الفكر، ط ٣، ١٩٧٤.
٤. الاسلوب، الشايب، احمد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٦، ١٩٦٥.
٥. الاضداد، لابن السكيت، تحقيق اوغست هفز، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٣.
٦. الاضداد، لابي حاتم،، تحقيق اوغست هفز، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٣.
٧. الاضداد، للاصمعي، تحقيق اوغست هفز، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٣.
٨. الاضداد، لقطرب، تحقيق هانس كوفلر، مجله اسلاميكا، المجلد الخامس، ١٩٣١.
٩. البيان العربي، طبانة، بدوي، النهضة المصرية، ١٩٧١.
١٠. البيان والتبين، الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٤٨.
١١. تطور اساليب النثر الفني في الادب العربي، المقدسي، انيس (دكتور)، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٦٨.
١٢. دراسات في فقه اللغة، الصالح، صبحي (دكتور)، دارالعلم للملايين، بيروت، ط٧ ١٩٧٨.
١٣. دروس في البلاغة العربية وتطورها، سعيد، جميل (دكتور)، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٥٧.
١٤. دفاع عن البلاغة، الزيات، احمد حسن، الرسالة، بلا مكان، ١٩٤٥.
١٥. دفاع عن الغة العربية، الحاج كمال يوسف (دكتور)، منشورات عويدات، بيروت ١٩٥٩.
١٦. دلائل الإعجاز، الجرجاني، عبد القاهر صححه محمد عبدة، نشره محمد رشيد رضا مطبعة المنار، مصر، ١٣٦٦ هـ.
١٧. سر الفصاحة، الخفاجي، ابن سنان شرح عبد المتعال الصعيدي، مكتبة محمد علي صبح واولاده، القاهرة، ١٩٦٩.
١٨. الصناعتين، العسكري، ابو هلال، مطبعة محمود بك، الاستانة، ط١، ١٣١٩ هـ.
١٩. الطراز، العلوي، يحيى بن حمزة، مطبعة المقتطف، ١٩١٤.
٢٠. علوم البلاغة، المراغي، احمد مصطفى، المطبعة العربية.
٢١. عيار الشعر، العلوي ابن طباطبا، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٥٦.
٢٢. في الميزان الجديد، مندور، محمد (دكتور)، دار النهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة القاهرة.
٢٣. كلام العرب، ظاظا، حسن، مطبعة المصري، الاسكندرية، ١٩٧١.
٢٤. متخير الالفاظ، ابن فارس، احمد، تحقيق هلال ناجي، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٧٥.
٢٥. المثل السائر، ابن الاثير، ضياء الدين، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ١٩٣٩.
٢٦. من اسرار البلاغة في علم البيان، الجرجاني، عبد القاهر، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٨.
٢٧. من اسرار اللغة، انيس، ابراهيم (دكتور)، مكتبة الانجلو القاهرة، ١٩٥٨.
٢٨. النقد الادبي، امين احمد، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ١٩٦٣.
٢٩. النقد الادبي الحديث، هلال، محمد غنيمي (دكتور)، دار الثقافة، دار العودة بيروت ١٩٧٣.
٣٠. النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري، العزاوي، نعمة رحيم (دكتور)، وزارة الثقافة والفنون، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٨.